مكفوفتان مبصرتان

فاديا وناهد لم تستطع الحرب قتلهما

مآسي الحرب اللبنانية لاتحصى. ليس الاموات وحدهم ضحاياها. شهداؤها الاحياء شهود على قساوتها وعبثيتها. كثيرون فقدوا ايديهم او ارجلهم، او بصرهم، وسمعهم... او حركتهم. بعضهم تملكه اليأس والبعض الآخر تمتع بإرادة وشجاعة على مواجهة الحياة الجديدة هنا نموذجان يمثلان شريحة كبيرة من ضحايا الحرب من كل المناطق من دون استثناء.

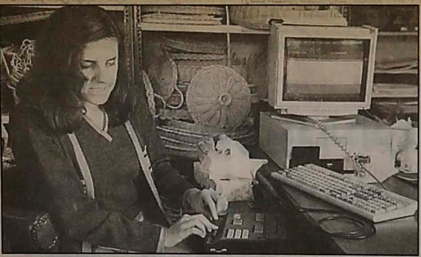

ناهد (مصطفى جمال الدين)

اشاحت فاديا بوجهها بعيدا محاولة الهرب من السؤال: «ما الذي تذكرينه عن لحظة اصابتك؟»، سؤال حملها الى الماضي، الى الحرب التي كانت دائرة آنذاك. سؤال ينكأ الجرح الذي لما يندمل ويوقظ تلك البقعة الغافية في الذاكرة. لكنها فضّلت عدم التنصل من الاجابة، فاستعادت ذكريات الحادثة التي رسمت صورا قاتمة لمستقبل فتاة في ربيعها التاسع عشر وسلبتها الكثير: عينيها، يدها، والدها وخطيبها.

تعود فاديا بعلبكي الى الوراء الى اثنتي عشرة سنة مضت، كانت يومها مخطوبة وتعدّ العدة للزفاف «كنت مع خطيبي نتحدث في الغرفة وكان ابي داخلا من الباب عندما دوّى انفجار فظيع في المكان ولم اعد اذكر شيئا». في ذلك اليوم من ايام الحرب بقيت فاديا واهلها في المنزل في منطقة الرويس، فلم يلجأوا للملاجئ والزوايا الآمنة فانتقتهم الحرب من بين الجدران لتضمهم للائحة ضحاياها العزل.

ظلت فاديا بعيدة عما يجري حولها وحملتها ذاكرتها الغائبة الى دنيا اخرى بعيدة عن ويلات الحرب، وفقد الاطباء الامل بشفائها مع فظاعة ما اصابها: عينان كفيفتان، اذن صماء، حاسة شم مفقودة، حنك مكسور، اليد اليسرى مقطوعة، كهرباء في الرأس وتشوه في وجهها.

«سألت بعد ما وعيت «وين أنا؟ ليش عتمة؟» واخبروني بكل رواق إني في المستشفى بس خبوا عني انو بيي وخطيبي ماتوا. تعذبت كتير وشفت الموت بعيني الف مرة وبعدني عم شوفوا بس الحمد الله ارادتي قوية وايماني بالله كبير».

كانت تسأل عن والدها «ليش بابا ما عم يجي وينو كل العالم بيجوا إلا هو». وكان الجواب يأتيها دوما انه اتى عندما كنت نائمة اوانه مريض في البيت وحجج كثيرة مماثلة، وتحت اصرار فاديا استسلم اهلها وقالوا لها انه مات مع خطيبها لحظة سقوط القذيفة.

ومع خروجها من المستشفى بدأت فاديا مرحلة مختلفة من حياتها، عمليات جراحية مستمرة لاصلاح ما يمكن اصلاحه «تغيّرت حياتي، كنت روح وإجي وسوق سيارة، وفجأة تغيّر كل شي». وكان اهلها دائما الى جانبها وتعاطفوا معها كثيرا لانتشالها مما هي فيه حتى اختارات ان تتعلم وتأخذ شهادة سنتراليست وتتعلم طريقة «البرايل» في الكتابة والقراءة، واصبحت اليوم عضو مجلس ادارة في «المؤسسة اللبنانية للمكفوفين ومسؤولة عن الاستقبال ومستشارة ادارية». «لم احب يوما الجلوس في المنزل كنت اريد العمل وآكل لقمتي من عرق جبيني والمؤسسة اعطتني الفرصة لذلك كما ان رئيس المؤسسة الدكتور عيسى المعلوف وقف كثيرا الى جانبي وصرت اناديه «بابا»».

وتتسلى فاديا في اوقات فراغها بكتابة القصص القصيرة «ما ينبع من قلبي اكتبه فانا لدي هذه الهواية»، وبنظرة الواعي لما يجري حوله تصف ما يجري في البلد «بصراحة لا اقول ان الحرب انتهت فما سمعته في الاخبار يوحي بأن حرب القذائف انتهت واليوم هناك حرب اقتصادية نتمنى ان تنتهي سريعا».

فاديا

لاتنسى فاديا ما جرى لها «أتناسى الامر لكن الانسان لاينسى ابدا، فالغرفة حيث سقطت القذيفة تذكرني دائما بالحادثة لكن علينا القبول بقدرنا».

ناهد

وعلى عكس فاديا، لا تجد ناهد عربية صعوبة في استعادة ذكريات اصابتها، فهي محفورة في ذاكرتها خاصة انها غيّرت الكثير من معالم حياتها وخطّت لمستقبلها فصولا مختلفة، فهي نموذج آخر لحكاية الحرب و«الظلام».

ولدت ناهد قبيل اشهر من ١٣ نيسان ١٩٧٥، وشاهدت الحرب المتقاطعة عند المحاور ونشأت على اصوات دوي القنابل والانفجارات دون ان تعي انها ستكون ضحية لها في يوم ما. الى ان كان يوم كانت تساعد والدتها في تنظيف زجاج المنزل «كان يوم ١٩ آب ١٩٨٥، انفجرت سيارة مفخخة تحت منزلنا في منطقة كركول الدروز، الساعة ١٢ ظهرا، يومها كانت وتيرة الانفجارات متصاعدة ببئر العبد وسن الفيل وزحلة».

تخوض في الحديث بابتسامة ساخرة من تلك الحرب «العمياء» التي لم تحسن اختيار ضحاياها، وتتكلم باحساس المنتصر على تلك الظلمة التي اورثتها الحرب اياها دون ان يكون لها أي ذنب فيها، ومع توغلها في التفاصيل الدقيقة تبدو وكأنها تتساءل «ما هو الاثم الذي اقترفته ابنة السنوات الاحدى عشر لتنتقم منها الحرب اشد انتقاما؟».

وتكمل ناهد «كنت امسح الزجاج وفجأة دوّى شيء قوي وقذفني الى آخر الغرفة، قمت وصرخت «أنا عميت»، لم اكن اسمع شيئا وكانت اذناي مغلقتين بفعل الضغط الذي ولدته العبوة المتفجرة». ولأن النيران اغلقت مدخل البناية عجز اهل ناهد عن نقلها الى المستشفى بسرعة وهي في حالة الخطر والدماء تغطي جسمها ووجهها، فكان لا بد من القيام بشيء لانقاذها قبل فوات الاوان ووجدوا الحل برميها عبر الشرفة الى رجال الدفاع المدني.

«نقلوني الى المستشفى ورافقني اخي الذي كان يظن انني متّ فيناديني ناهد فاقول له «ما تخاف انا منيحة»، لحظات بين الموت والحياة لا تنساها ناهد وبعد عشرين يوما في المستشفى خرجت منها مع اثر لايُمحى، عينان مغمضتان قسرا عن الرؤية لفتاة لم تر بعد الدنيا وشظايا زجاج رسمت على جبينها ويديها وصدرها خطوطا عفى عليها الزمن وخاواها الجسد الطري.

وكانت المرحلة الاصعب فترة ما بعد المستشفى إذ حرمت ناهد من دراستها وهي الطالبة المتفوقة، واضطرت للخضوع لعدة عمليات لم تات بنتيجة مرضية وفقدت إثرها ما تبقى لها من بصيص نور كانت تراه في احدى عينيها.

ولم تستوعب التلميذة المجتهدة فكرة تواجدها في مدرسة للمكفوفين لكنها مجبرة على ذلك، فتعلمت على مضض طريقة «البرايل» واتمت دراستها الابتدائية لتتوقف بعدها عن متابعة تحصيلها العلمي. «لم اكن انا ناهد المحبة للدرس والعلم، حاولت كثيرا ان اسيطر على وضعي وقررت المتابعة والمواجهة»، وهنا كان التحدي لذاتها واستطاعت اكمال طريقها بنجاح لتصبح اليوم طالبة في سنتها الاخيرة في معهد العلوم الاجتماعية وتجيد استعمال الكومبيوتر بمختلف برامجه كما تطبع على لوحة المفاتيح بسرعة مميزة نسبة لحالتها وتتقن اللغتين الفرنسية والانكليزية. وهي تعترف بانها لم تكن تتوقع الوصول الى هذه المرحلة، «يئست كثيرا في البدء ولم أتقبل فكرة العمى، ومع مرور الوقت تأقلمت».

لا تنسى ناهد ما فعلته الحرب بها وبكثيرين مثلها «الحرب ما عملت شي حلو بس لازم أتناسى الموضوع وكمّل طريقي». وبعد ان كانت تتضايق إذا تواجدت في الصالون حيث حصل الحادث باتت اليوم اقوى وقادرة على الاقتراب من الزجاج ومسحه إذا لزم الامر، خاصة ان اهلها ينسون احيانا انها مكفوفة.

احلام ناهد كثيرة كأي فتاة من عمرها وتتمنى تحقيقها، فهي تريد اكمال دراستها إذا خفّ الصداع الذي يصيبها بسبب تشنج اعصاب رأسها. كما انها تعيش حالة حب منذ ثلاث سنوات ونصف. الآن اكثر ما يزعجها هو اضطرارها للاعتماد على مساعدة الآخرين في بعض امورها «كنت اتمنى لو كنت مستقلة اكثر في حياتي لكن هذا غير ممكن مع حالتي».

بعد شهرين تنهي ناهد اجازتها الجامعية ولا يزال امامها الكثير لتحققه بعد ان صادقت الظلام فوثقت بذاتها وهزمته.

عبير جابر

تصويب

جاء في عنوان الدراسة التي أعدها د. منذر جابر في عدد «السفير» أمس، حول التهجير والنزوح، «اندفاع في المحيط الديني» والأصح هو «اندماج في المحيط المديني» ولذلك اقتضى التصويب والتوضيح.